

المحاضرة (١٧)

رواية بداية ونهاية:

تدور الرواية على أسرة من الطبقة الوسطى الصغيرة، تتكون من أب موظف وأم وأبنة (نفيسة) وثلاثة أبناء هم حسن وحسين وحسين. يموت الأب فجأة بسكتة قلبية فيتردى وضع العائلة إذ تعيش على راتب تقاعدي لا يزيد عن خمسة جنيهاً، وتُحاول الأسرة أن تشق طريقها في الحياة بصعوبة بالغة، فتبيع معظم أثاثها وتُغير مسكنها وتصبح (نفيسة) خياطة لتساعد أخويها ليكملا تعليمهما، لكن الأخ الكبير يترك المدرسة وينحرف ويعمل في تجارة المخدرات، أما حسين فيكمل تعليمه الثانوي ويصبح موظفاً صغيراً في (طنطا)، وأما حسنين الأخ الأصغر فكان ذا طموح يدفعه إلى تخطي وضعه الاجتماعي والطبقي فيتخرج ضابطاً ويفسخ خطبته لابنة الجيران ويتقدم لكريمة أحد الأثرياء، كما ينقل مسكن العائلة إلى حي راقٍ، لكن كل أحلامه تنهار فجأة أمام الحقيقة الرهيبة التي تتمثل في وضعه الطبقي واستحالة تغيير هذا الوضع بسبب طبيعة النظام الطبقي السائد في البلاد، إذ ترفض الأسرة الثرية مصاهرتة، ويصبح أخوه حسن مُطارداً من قبل العدالة بعد أن يفتضح أمره مهرباً للمخدرات، وتضبط أخته في بيت للدعارة، وأنداك لا يجد حسنين مفراً من أن يدفع أخته إلى الانتحار ثم ينتحر بعدها.

إن الجو الغالب على الرواية جو اسود قائم، فالأسرة تعيش في ظروف سيئة بسبب فقرها وبؤسها، وأفراد الأسرة مهمّاء يسعوا ومهمّاء يبذلوا من جهد لتحسين وضعهم، فالنتيجة لا تختلف، فالبؤس يبقى والإحباطات تتوالى والمشكلات تتفاقم، وواضح أن الرواية توحى بأن كل ذلك يعود إلى نظام المجتمع الطبقي والنظام السياسي الحاكم وظروف الاحتلال الأجنبي للبلاد، فوسط هذا الجو غير السوي والموبوء لا يستطيع الإنسان أن يعيش حياة كريمة إلا إذا كان منتبهاً إلى الطبقات

الاجتماعية العليا، فمثلاً نجد في الحوار الدائر بين الأم وأبنائها، إن الاحتلال الأجنبي هو السبب في مأساة الأسرة:

-أرأيت أن الأرواح التي زُهقت لم تذهب تضحياتها عبثاً. ولم تغضب هذه المرأة لشعورها بأن الخطر قد زال وحل محله السلام ولكنها لم تنتن عن رأيها فقالت: هيهات أن يُعوّض شيء عن هلاك روح شابة.

فقال حسنين ضاحكاً: لقد عشت يا أماء نصف قرن في ظل الاحتلال فلندع الله أن يمُدّ لنا في عمرك نصف قرن آخر في كنف الاستقلال فقالت الأم ممتعة: -احتلال استقلال. لا أدري أي فرق بينهما. خير لنا أن ندعو الله ان يكشف عنا الغمة وأن يبدلنا من عسرنا يسراً، فقال حسنين بحماس وإيمان.

- لو لم يكن الاحتلال لما تركت أسرتنا بعد موت أبي بلا معين. (ثم مخاطباً حسين) أليس كذلك؟ فقال حسين بتأمل اعتقد هذا.

وهناك باحثون يرو أن مأساة الأسرة لم تأت بسبب العامل الاجتماعي حسب، بل بسبب قوى أخرى يفوق تأثيرها العامل الاجتماعي، لأنها تقهر الإنسان قهراً، وهذه القوى تتمثل في القدر والطبيعة البشرية: إن القدر يُمثل العامل الرئيس المؤثر في مأساة الأسرة فلولا الضربة القوية المتمثلة في موت الأب لما وقعت المأساة، لأن موت الأب هو الذي أدى إلى ضياع المصدر الرئيس لدخل الأسرة، أما طابع الشخصية فيُمثل العامل الثاني المؤثر في مصير الأسرة. وطابع الشخصية عند نجيب محفوظ يأتي بمثابة قدر ثانٍ يسميه الفطرة أو الغريزة، ولعل أهم ما يؤثر في هذا العامل الوراثة التي تنتقل من الآباء إلى الأبناء، ثم أسلوب التربية، فمثلاً نرى انحراف الابن الأكبر حسن يعود إلى التربية المائعة التي تلقاها على يد أبيه، ممّا جعله يكبر وهو لا يؤمن بالأخلاق أو القانون أو الواجب^(١).

(١) اتجاهات الرواية المصرية. ص ٢٥٩-٣٠٥.

لعلّ من أهم مزايا الرواية رؤية المؤلف الواضحة والعميقة التي تتجسّد فيها، على نقيض رواياته السابقة التي جاءت رؤيتها غائمة أو ساذجة، وهذه الرؤية تمثلت- كما رأينا- في مأساة الطبقة الوسطى الصغيرة في مصر خلال الثلاثينات من هذا القرن.

فضلاً عن ذلك تمتاز الرواية ببناء مُتماسك ومُتلاحم، إذ ليس فيها حكايات أو محاور متوازية أو أمور زائدة يُمكن حذفها، أن الرواية صورت، في أسلوب دقيق، وضع ومصير أسرة واحدة تعيش في مكان وزمان محدّدين، ولم تتناول من الأحداث والشخصيات عدا ذلك، إلا ما له علاقة مباشرة بالأسرة.

ومن مزايا الرواية أيضاً أسلوبها المتصف بالطابع القصصي الذي يعتمد على لغة التصوير بدلاً من لغة التقرير، ويقوم الأسلوب في الوقت ذاته على جُمْل قصيرة ذات يقاع سريع وألفاظ تتصف بالمرونة، مثال ذلك هذه الفقرة التي بدأ بها الرواية " ألقى الضابط نظرة كئيبة على الردهة الطويلة التي تفتح عليها فصول السنّتين الثالثة والرابعة. وقد شمل المدرسة - التوفيقية- سكون عميق، ثمّ مضى إلى فصل من فصول السنة الثالثة. ونقر على الباب مستأذناً ودخل متجهاً صوب المُدرّس وأسر في أذنه بضع كلمات، فسدد المدرس بصره صوب تلميذ يجلس في الصف الثاني وناداه قائلاً: حسنين كامل علي.

فقام التلميذ وهو يُردد بين المدرس والضابط نظرة مليئة بالترقب والقلق وغمغم: أفندم؟ فقال المدرس: أذهب مع حضرة الضابط".

أما الشخصيات فهي متباينة الطباع، مختلفة السمات، فحسّنين قلق ومضطرب وذو تفكير برجوازي، يُحب المظاهر أكثر من المبادئ والمُثل، فهو حين يموت أبوه لا يجزع لمتوه قد ما يجزع لتواضع مآتمه وقبره، ويسعى جاهداً أن يغير وضعه الاجتماعي بوسائل شتى فيصرف على تعليمه ممّا تحصل عليه أخته من الخياطة، ومن المال الذي يصل عليه أخوه حسن من تهريب المخدرات، ويلتحق بالكلية

العسكرية حتى يكون ضابطاً ليضيف على نفسه مظاهر القوة والسيادة ويعيش في أحلام وردية، لكنه يصحو فجأة ليرى نفسه في أسوأ وضع، ولا يجد الخلاص إلا في الانتحار.

على حين نجد أخاه حسين شخصيةً متماسكةً وصورة، فهو يؤمن بالمبادئ والمثل ويحمل أفكاراً اشتراكية ويحلم بالإصلاح الاجتماعي ويُضحى في سبيل أن يكمل أخوه الأصغر تعليمه، وأن يُحسن وضع أسرته المعاشي وهو في الوقت ذاته راضٍ عن واقعه، ويجد العزاء عن بؤس واقعه في الثقافة، كما لا يبحث عن الحل الفردي لأزمة أسرته، من يسلم من التمزق.

وأما الأخت فهي فتاة عانس، لا مل لها ولا جمال ولا أب، لا تجد أحداً يُعنى بها بعد موت أبيها وانشغال أمها بأمور الأسرة ومُتطلباتها فتضطر إلى العمل خياطة لتساعد أسرته، وعندما تلتقي بأول رجل يخدعها بمعسول الكلام، تستسلم له، لكنه لا يتزوجها بسبب فقرها، ثم تسقط تدريجياً حتى تصبح مومساً، وحين يُكتشف أمرها تقرر الانتحار بتشجيع من أخيها حسنين.

والشخصيات عموماً يعني المؤلف برسمها بوسائل مختلفة أهمها الوصف المباشر والحوار والمنولوج الداخلي، لكنّ الشخصيات من جهة أخرى، لا تبدو نامية، فأفعالها تسير حسب طبيعة الشخصية وفي اتجاه المأساة التي تنتهي إليها، في طريق ضيق لا تكاد الشخصية تخرج منه وكأنه لا إرادة لها، لهذا حين يُدرك القارئ طبيعة الشخصية في بداية الرواية، يصبح قادراً على استتساخ كلّ ردود أفعالها، أي أن تصرفاتها لا تحمل أية مفاجآت للقارئ، كذلك لا يضيف مرور الزمن وتوالي الأحداث جديداً إلى الشخصية من الداخل ولا يمنحها تطوراً.

